البنية الداخلية للجملة في ضوء هندسة عرفانية موسعة

The internal structure of the sentence in the light of expanded cognitive engineering

أسماء عبداوي
جامعة الحاج لخضر باتنة1
asmaabdaoui1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/08/21 تاريخ القبول: 2019/09/25 تاريخ النشر: 2020/01/05

ملخص البحث

وقع الدرس التوليدي التحويلي في العديد من النقائص في تفسير البنية الداخلية للجملة، وذلك بسبب تضييق مجال البحث من خلال النظر في الذهن المجرد. ومن هنا تسعى الدراسة لتقديم تفسير جديد للبنية العميقة للجملة، بالنظر إلى بنية الذهن المعرفية، والتي أصبحت بنية موسعة تتداخل فيها عدة عناصر وعلاقات داخلية وخارجية تتحد لإنتاج الجملة.

كلمات مفتاحية: بنية الذهن المعرفية- البنية العميقة- الدرس التوليدي التحويلي- العرفانية- المجتمع- النفس.

ABSTRACT:

The generative transformative lesson saw several deficiencies in the interpretation of the internal structure of the sentence occurred, This is due to the narrowing of the field of research by looking at the abstract mind.

Hence the the study seeks to provide a new interpretation of the deep structure of the sentence, in view of the structure of the cognitive mind, It has become an expanded structure produced by several elements and internal and external relations all combine to produce wholesale.

Keywords: Cognitive mind structure - Deep structure - The generative transformative lesson - Cognitive - Society - Thought.

1. مقدمة:

الجملة من الموضوعات اللسانية التي لا تزال إلى يومنا هذا تشغل بال الباحثين اللسانيين بالرغم من ظهور عدة مدارس لسانية عالجت هذا الموضوع بإسهاب، وإن كانت هذه الدراسات نجحت إلى حد كبير في تقديم وصف مفصل للبنية السطحية، وذلك لأنها بنية تطفو على مستوى السطح فيسهل على الباحث اللساني ترصد أشكالها، إلا أنها أخفقت في تقديم تفسير دقيق للبنية العميقة، وليس المقصود بذلك الدراسات التي استبعدت هذه البنية من موضوع البحث باعتبارها بنية داخلية غير قابلة للملاحظة، وإنما المقصود الأبحاث التي أدركت العلاقة الوطيدة التي تربط بين هذا المستوى من الجملة ومستوى البنية الفيزيائية، ولكنها بحثت في الموضوع وفق نظرة ضيقة ركزت على بنية الذهن الفيزيائية واستبعدت عوامل أخرى داخلية وخارجية من شأنها أن تتحكم في عملية إنتاج الجملة وتفسيرها.

ولعل أهم الأسئلة التي تطرح نفسها هنا هي:

- كيف يمكن تفسير عملية إنتاج الجملة؟ وما هي أهم العوامل والعلاقات المتحكمة في ذلك؟
- ما أهم الجوانب التي أخفقت فيها النظرية التوليدية عند تفسير البنية الداخلية للجملة؟
- ما الأساس البديل الذي يمكن أن نؤسس عليه تفسيرا جديدا لبنية الجملة الداخلية؟

. فرضيات الدراسة:

- ضيّق تشومسكي من مجال البحث عندما بحث في منطقة الدماغ الفيزيائي للانسان، ولا يمكن تحقيق كفاية تفسيرية للجملة إلا بتوسيع الدراسة على بقية العوامل المتحكمة في إنتاج المعرفة البشرية.
- تنتمي البنية العميقة للجملة لذهن الانسان لكنها ليست مستقلة عنه، فهي شديدة التلاحم مع تجربة الانسان الفكرية والحسية.

. أهداف البحث:

- تسليط الضوء على البنية الذهنية الواسعة للانسان ومعرفة دورها في إنتاج البنية العميقة للجملة.
- إبراز أسباب فشل النظرية التوليدية التحويلية في تحقيق كفاية تفسيرية لعملية إنتاج الجملة؟
- البحث عن بديل لتفسير البنية الداخلية للجملة.

. منهجية البحث:

قام البحث على المنهج الوصفي التحليلي لما له من دور كبير في تحقيق أهداف الدراسة، ففي مقابل ما سمح به الوصف من رصد لبنية الجملة كما هي في الواقع اللغوي، ساعد التحليل على ربط المفاهيم والأفكار التي تجمع بينها علاقة من أجل بناء تصور بديل للبنية الداخلية للجملة.

2. المعرفة اللغوية تحت مجهر معادلة: (المجتمع+ النفس المعرفة اللغوية)

وقع الدرس التوليدي التحويلي في العديد من النقائص في تفسير البنية الداخلية للجملة، ويعود ذلك إلى تضييق مجال البحث من خلال البحث في الذهن المجرد أو الدماغ الفيزيائي للإنسان[1]، وهو الجزء الذي رآه مسئولا عن انتاج اللغة، وهو جزء مفصول عن العمليات الفكرية للإنسان.

لقد أغفل "أفرام نوام تشومسكي" (Avram Noam Chomsky) الهندسة الواسعة للذهن، والتي تشمل جميع العناصر التي تتداخل في إنتاج اللغة وهي مختلف العمليات الذهنية التي ترافق عملية إنتاج اللغة، وهو ما يعطي للبحث اللساني بعدا شموليا أكثر يتجاوز علم الأعصاب الذي أقام عليه تشومسكي أبحاثه إلى الاستمداد من علوم كثيرة كعلم الأعصاب وعلم التشريح وعلوم الطبيعة وغيرها...[2]

لعل هدف تشومسكي من وراء تضييق مجال البحث في اللغة يصب في الغاية التي يسعى إلى تحقيقها من نظريته التوليدية التحويلية وهي وضع اللغة في سياق النظريات اللسانيّة الكليّة وتكييفها مع قوانين عالمية، إلا أن ذلك لا يسوّغ تجريد اللغة من ملابساتها، لأن العمليات الذهنية لا يتحكم في إنتاجها عوامل داخلية فحسب، بل إن السياقات والخبرات عوامل شديدة الارتباط بالإنسان.

وهذا ما يجعل البنية التصورية للغة تنطبع بجميع هذه العوامل الداخلية منها والخارجية، فهي ليست بنية لغوية فقط كما يتصورها تشومسكي، وإنما هي شبكة من المعارف الفكرية والحسية "إنها المجال الذي يتم فيه فهم

الأقوال اللغوية في سياقاتها، بما في ذلك الاعتبارات الذريعية والمعرفة الموسوعية؛ إنها البنية المعرفية التي ينبني عليها التفكير والتخطيط"[3]، وهو تصور العرفانيين الذين أيقنوا أن البنية التصورية تتكون من شبكة من المعارف والعلاقات التي تنبني من مجموعة خبرات الإنسان الفكرية والحسية، ومواقفه الحياتية المتنوعة، وعندما نقول خبرات فكرية وخبرات حسية فإننا لا يمكن أن نخرج عن عنصرين أساسيين مسئولين بدرجة أولى عن إنتاج اللغة وهما: المجتمع والنفس، واللذان يشكلان مع اللغة معادلة لا يمكن أن تستغني النظرية اللسانية عنها في تحقيق حد الكفاية لتفسير اللغات البشرية.

لقد اهتم تشومسكي بذهن المتكلم لكنه عزله عن السياق العام والعلاقات المتشابكة التي تحكمه، حينما قصر اهتمامه على الجانب الذهني العصبي لدماغ المتكلّم[4]، وهذا ما يفسر مسار التوليديّة في دراسة اللغة والذي يتخذ مجالا مغلقا، ينحصر في مستوى اللغة الداخليّة.

والحقيقة أن المعرفة اللغويّة وإن كانت مخزّنة في ذهن الإنسان كما رأى تشومسكي، وهو على صواب في ذلك، فهي ليست مستقلّة عنه، وذلك لأنها لم تنشأ بمعزل عن العوامل الداخلية والخارجية المتحكمة فيه.

وإذا قلنا عوامل داخلية فإننا نعني بذلك جميع مكونات النفس بما فيها الإدراك، الخيال، الذاكرة، الوجدان...وغيرها من أنواع التفكير والشعور، والتي تتأثر إلى حد كبير بالعوامل الخارجية من تجارب وخبرات ومواقف تحصل جميعها داخل مؤسسة كبرى ينتمي إليها الفرد ويتأثر بها وهي المجتمع.

ولعلّ تحقيق كفاية في تفسير اللغة لا يحصل إلا بالنظر إلى هاذين المكونين الأساسيين والمتحكمين إلى حد كبير بكيفية إنتاج اللغة، وهما: المجتمع والنفس، وترتبط هذه العناصر الثلاثة: اللغة، والمجتمع، والنفس وفق سلمية تتحقق على أساسها عملية تفسير اللغة.

فإذا كانت اللغة "مرآة للفكر" كما يراها تشومسكي فإن هذا الفكر، والذي يعد أحد مكونات النفس، لا شك أنه ينتمي للمجتمع وليس خارجا عنه، وذلك وفق المعادلة الآتية:

مجتمع+ النفس ⟸ لغة

تتضح معادلة: (مجتمع- نفس- لغة) عندما نعود مع "ابن سينا" إلى السبب الرئيسي وراء ابتكار اللغة، وهو دافع الكلام والتعبير عما في النفس للآخر الذي يشارك الإنسان في دائرة الوجود ويتفاعل معه بواسطة اللغة، وذلك مما نقله محمد الأوراغي[5] عن ابن سينا (ت427هـ) حينما قال: "ولمّا كانت الطبيعة الإنسانيّة محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها للمشاركة والمجاور، انبعثت إلى اختراع شيء يتوصّل به إلى ذلك، ولم يكن أخف من أن يكون فعلا، ولم يكن أخف من أن يكون بالتصويت... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووُفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا ليُدلّ بها على ما في النفس من أثر"[6]

لعل الحاجات البيولوجية للإنسان هي السبب المباشر الأول الذي دفع البشرية إلى إنتاج اللغة لهذا لجأ الإنسان في بداية التواصل إلى استعمال وسائل محسوسة تتوافق مع قدراته البسيطة، وهي قدرات حسيّة بالدرجة الأولى، ومن أجل هذا استعان بوسائل ومكونات شبيهة إلى حد بعيد بمكونات العالم الخارجي والذي شكل في البداية المصدر الوحيد للمعرفة لدى الإنسان قبل اتخاذ العقل مصدرا للحقيقة، ولذلك اشتغلت حواس الإنسان في بداية احتكاكه بالعالم الخارجي فاستلهم بما يراه من الطبيعة بواسطة حاسة العين رسوما وخطوطا وأشكالا هندسية، وسخر قدرته على التصويت لمحاكاة بعض الأصوات في الطبيعة وإنتاج بعضها من أجل التواصل والتعاون على

تسخير مكونات العالم الخارجية لخدمة الإنسان ولذلك سميت هذه المرحلة من حياة الإنسان عند علماء النفس بمرحلة "الكلام قبل العقلي" (preintellectual speech) و"التفكير قبل اللغوي" (prelinguistic thought)[7] وهي مرحلة يسير فيها التفكير واللغة بشكل منفصل[8]، وتعد مرحلة بدائية للسلوك اللغوي قبل تطور علاقة تفكير الإنسان باستعماله للغة[9]، ولذلك فإن الحاجة إلى إنتاج اللغة في هذه المرحة من حياة الإنسان تولدت من حاجته إلى التواصل، فكان المجتمع هو السبب الأول لنشأة اللغة، فلولا وجود مجتمع ولولا وجود الآخر لما احتاج الإنسان وسيلة للتواصل والتعبير عما في نفسه من حاجيات.

ولمّا توفرت وسائل البيئة للبشرية انتقل الإنسان إلى مرحلة التفكير لتطوير وسائل الحياة، عن طريق التقليل من حجمها وعددها سعيا نحو تحقيق البساطة والاقتصاد في الجهد والوقت، ولا شك أن فكر الإنسان كلما ازدادت درجة تعقيده ازدادت بساطة الوسائل التي يسخرها لنفسه من أجل تسهيل الحياة، ومن هنا انتقلت اللغات البشرية بمرور الزمن إلى هذا الشكل التجريدي البالغ التعقيد في الذهن لتتدخل العمليات العقلية العليا في تشكيل نظامها وهي عمليات في غاية التعقيد والسرعة، حيث أصبح اكتساب اللغة شبيه إلى حد كبير بعملية اكتساب أي صناعة مركبة، حيث تبدأ عملية الاكتساب بالمحاكاة والتكرار وتنتهي إلى عمليات ذهنية مجرّدة في غاية الدقة والتعقيد[10]، حيث يحتاج تعلم أي صناعة في البداية إلى استحضار العقل الواعي أثناء الممارسة، أما عندما تتحول الصناعة إلى عادة فإن العقل الواعي يتوقف عن مراقبة السلوك شيئا فشيئا، لتحلّ محلّه عمليات عقلية أكثر تشابكا وتعقيدا، تفوق درجة تعقيد العمليات الميكانيكيّة للعقل كعمل العين مثلا، لأنها عمليات تتدخل فيها جميع مكونات النفس البشرية، هذا المجال المفتوح على عدّة مدخلات داخليّة من النفس، وخارجيّة من المجتمع، وتتحكم فيه إلى جانب هذه العمليات الإدراكيّة عمليات أخرى يصعب التحكم فيها وهي العمليات النزوعيّة والعمليّات الوجدانيّة.

تستمد اللغة بنيتها من المجتمع ومن التواصل أولا، وهذه المرحلة أغفلتها اللسانيات الكلية، لأنها تؤسس لفرضية تجعل من اللغة ظاهرة متغيرة بتغير المجتمع، وهذا ما لا يتفق مع أهداف النظرية التي سعت اللسانيات الكلية لإثباتها، أما في المرحلة الثانية من التواصل فإن اللغة تمر بالنفس أولا قبل أن تنتقل إلى مرحلة الكلام الخارجي، لذلك يقول أحد العلماء أن "الكلام يستدخل نفسيّا قبل أن يستدخل فيسيولوجيا". ذلك لأن التجربة في علم النفس أثبتت أن كلام الطفل في البداية يكون متمركزا حول الذات أي أن أنه يكون كلاما داخليا قبل أن ينتقل إلى الخارج[11]، وهي المرحلة التي وقفت عندها اللسانيات الكلية طويلا، وأنشأت جميع نظرياتها بناء على وصف الشكل الداخلي للغة وهو ما سننظر فيه.

لقد أبرز الغزالي مراحل إنتاج اللغة قائلا: "فإن الشيء له في الوجود أربع مراتب: الأولى حقيقته في نفسه؛ الثانية ثبوت مثال حقيقته في الذهن، وهو الذي يعبر عنه بالعلم؛ الثالثة تأليف مثاله بصوت بحروف تدل عليه، وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس؛ الرابعة تأليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ، وهو الكتابة"[12].

وإذا أعدنا ترتيب عملية إنتاج اللغة، فإن ألفاظ اللغة وتراكيبها بحمولاتها الدلاليّة لا تتشكل إلا بناء على عقد اجتماعي يصادق عليه مجتمع معيّن لا فردٌ واحدٌ أو مجموعة أفراد، لأن إنشاء اللغة يفترض تفاعلا تعاونيّا في صفوف جماعة معيّنة، فاللغة ملك للمجتمع الذي تواضع أفراده عليها، فهي قاسم مشترك لا يمثل ملكية خاصة لأي شخص أو فرد دون آخر، ولذلك لا يمكن أن تستمدّ معناها إلا من الاستعمال الذي وضعت لأجله.

ويمكن أن نستعير مفهوم فاردينان ديسوسير (F.De saussur) للقيمة الدلاليّة[13] هنا من أجل تعميمه على جميع أنظمة اللغة، فالمجتمع هو الذي يوجِد القيم، والدليل على ذلك أنه لا يمكن لقيمة واحدة أن تجد لها مكانا مركزيّا في المجتمع أو أن تستمر إن لم تجد قبولا عاما لها بين فئة كثيرة جدا من أفراد هذا المجتمع.

لذلك فإن المعاني قبل أن تتشكل داخل النفس فإنها تتكون أولا داخل المجتمع الذي يعطيها قيمة ما تنطبع في النفس بالكيفية نفسها عند جميع أفراد اللغة الواحدة، وقد يخرج هذا الفرد عن الاتفاق العام للجماعة اللغويّة الواحدة ويستخدمها استخداما خاصّا حينما ينساق لعمليات النفس النزوعيّة والوجدانيّة، وهو ما يصطلح عليه بالانحراف أو الانزياح في البلاغة القديمة والحديثة، ويحصل هذا الانحراف في الكلام إذا كان لأغراض جماليّة أو لتعميق درجة تأثيره في نفوس المتلقين أو بغرض المراوغة وتضليل المستمع عن المعنى المقصود.

ولهذا فإن المعنى في الذهن متغير وليس واحدا كما ذهب إلى ذلك التوليديون والوظيفيّون، لأن المعنى لا ينشأ في الذهن كما افترضوا وإنما ينشأ في النفس، أما المعنى الموجود في الذهن فليس سوى ظلا للمعنى الحقيقي الموجود في النفس (ثبوت مثال حقيقته في الذهن)، ولذلك لا يمكن تصوّر بنية دلاليّة واحدة أو كليّة، لأن المعاني تتغيّر مادامت خاضعة للنفس البشريّة، أما العبارة فتأتي على منوال المعاني التي في النفس، ولذلك لا يمكن أن نقول باتفاق اللغات في نفس البنى الشكلية، وإن اشتركت في بعض المبادئ اللغوية العامة، إلا أنها تبقى محتفظة بالخصائص البنيويّة التي تعكس فكر مجتمع بعينه، فالمجتمع الذي تجمعه عدّة عناصر مشتركة (بيئة واحدة – عادات – تقاليد – دين - معتقدات...) تتكون له رؤية مشتركة وهذه الرؤية تتوزع بالتساوي على أفراد هذا المجتمع لتستقر في (النفس)، والتي يمكن أن نصطلح عليها "بالنفس المشتركة" استئناسا بما جاء في القرءان الكريم، الذي عبّر عن الأنفس بالنفس الواحدة في عدّ مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾[14]، فدلت اللفظة على عدة معاني من بينها الدلالة على النفس الواحدة كما جاء في البحر المحيط (أي إخوانكم لأنكم كنفس واحدة)[15] ، وقد تكرر هذا الاستعمال بنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم)[16]

وقريبا من هذا الاستعمال للفظة "النفس" استخدم سيقموند فرويد (Sigmund Freud) مصطلح (اللاشعور الجمعي)، وبما أن هناك نفس مشتركة فإن العبارة لا تأتي على المثال الذي يأتي في الذهن، بل على المثال الذي في النفس المشتركة، هذا المثال الذي يختلف من مجتمع لآخر وبناء عليه تختلف البنيات الدالة وتكتسب خصوصيّتها.

ولهذا لا يمكن أن تتحدّد دلالة الكلمات إلا بالنظر إليها داخل مجتمع ما وذلك بالقياس إلى درجة استعمالها من قبل الجماعة اللغويّة لهذا يقول مايه: "إن معنى كلمة ما لا يمكن تحديده إلا بفضل معدّل الاستعمالات اللغويّة من ناحية، والأفراد والفئات في مجتمع واحد من ناحية أخرى"[17]

3. البنية الداخلية للجملة في ضوء الهندسة الواسعة للذهن:

إذا كانت البنية الداخلية للغة تستمد من المجتمع- كما رأينا- فإن الكلام الخارجي يستمد بنيته من المعنى الذي ينشأ في الذهن، فهناك تشابه كبير بين طريقة توارد المعاني في النفس وهو ماعرف (بالكلام الداخلي) وطريقة توارد الكلمات في النطق أو ما أطلقوا عليه (كلاما خارجيا)، " لدرجة أن كثيرا من علماء النفس، ومن بينهم واطسون، يوحّدونه [أي الكلام الداخلي] بالتفكير – فيعتبرون الكلام الداخلي على أنه كلام لا صوتي، مكفوف inhibited, suondless"[18]، وقد سبقهم إلى هذه الفكرة العالم اللغوي العربي عبد القاهر الجرجاني (ت475هـ)، الذي أشار إلى أن الكلمات في اللفظ تترتب وفق ورودها في النفس، وذلك في سياق تعريه للنظم.[19]

قضية المعاني النفسية أو الكلام الداخلي وعلاقتها بالبينة الخارجية للغة هي قضية لا يمكن معالجتها بأي حال من الأحوال بمعزل عن قضية اللغة وعلاقتها بالفكر، لأنها مشكلة تتعلق في الأساس بالتفكير واللغة.

وإن كنا نستبعد لمناقشة هذه القضية ذلك الفهم السطحي للكلام الداخلي على أنه مجرد ذاكرة لفظية أو مثال لسرد صامت لشعر محفوظ عن ظهر قلب[20]، بحيث لا يختلف الكلام الداخلي عن الكلام الخارجي سوى في الطابع الفيزيائي الذي يتخذه الكلام الصوتي في مقابل الطابع النفسي الذي يأخذه الكلام الداخلي، وإن كنا نستبعد هذا الفهم البسيط لمفهوم الكلام الداخلي للغة فإننا وفي الآن نفسه نستبعد تلك المفاهيم المعقدة للكلام الداخلي مما اقترحه تشومسكي، فخرج بذلك عن الموضوع الأساس للدرس اللغوي نحو مجال آخر من الدراسة بحثا عن كيفية عمل ميكانيزمات العقل لا اللغة.

لنذهب مع جولد شتين إلى أن الكلام الداخلي يتخذ شكل النشاط الذهني الوجداني طالما أنه يتضمن دوافع الكلام والتفكير الذي يعبّر عنه في كلمات[21]، بالرغم من إصرار جولد شتين على أن ذلك النشاط الذهني الوجداني هو نشاط إرادي مع أن بعض العمليات العقلية قد تنفلت أحيانا من رقابة العقل الواعي، والدليل خروج بعض العبارات التي لا يريد المتكلم البوح بها عن سلطته، أما الوجدان فهو أحد مكونات النفس التي سبق وأن تحدثنا عنها.

كثيرا ما يأتي الملفوظ تبعا للمعنى الذي ورد في الذهن في كثير من المواقف والسياقات اليومية للإنسان، فقد يستغني المتكلم عن المسند أو المسند إليه وقد يستغني عنهما معا، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد تجيب على من سأل: من جاء؟، فتقول: أحمد Ø. دون ذكر المسند، لأنه حاضر في السياق، وقد ينتظر الطلبة الأستاذ أمام نافذة الفصل، فيرى أحدهم سيارته، فيقول: جاء Ø. دون ذكر للمسند إليه، وقد يستغني المتكلم عن المسند والمسند إليه معا، ويجيب على من سأل: هل جاء زيد؟ قائلا: نعم Ø + Ø. دون أن يضطر إلى ذكر المسند والمسند إليه.

فهذه التراكيب مطردة في اللغات البشرية لأن "الناس الذين يعيشون في اتصال نفسي وطيد [حسب تولتوي] يكون الاتصال بينهم عن طريق الكلام المختزل، ويمثل ذلك القاعدة لا الاستثناء"[22] ، لذلك نميل إلى اختزال الكلمات أثناء الاتصال الوثيق حتى وصف هذا النوع من التواصل بأنه اتصال بلا كلمات (wordless communicatio)[23]، لأن "الناس خلال الاتصال الوثيق يفطنون إلى المعاني المعقدة بين بعضهم البعض بواسطة الاتصال "المختزل والواضح" بأقل الكلمات.[24]

وهذا ما جعل البعض يرى أن الجانب السيكولوجي للكلام الداخلي مختزل في عنصر المسند إليه فقط[25]، حيث يختزل الكلام الداخلي الأصوات والنحو ولا يحتفظ سوى بمدلولات الألفاظ، والتي تختزل في الغالب إلى معنى واحد، اصطلح عليه "باولهان" (Paulhan) بمغزى الكلمة، ويقصد بها مجموع الأحداث النفسية التي تتبدى في وعينا بواسطة الكلمة[26]، وهي التي تظهر في الكلام في الحالات التي يكون فيها التواصل وطيدا وفي غيرها من الحالات التي يكون فيها السياق واضحا، ولذلك فإنه عندما يكون السياق واضحا "يصير من الممكن تناقل كل الأفكار والمشاعر وحتى سلسلة كاملة من التعقل بواسطة كلمة واحدة"[27]

لهذا يمكن القول أن أقل ما تتكون منه الجملة هو م أو م إ، لأن النفس بطبعها شديدة التلاحم مع ملابسات الحال وليست منفصلة عنها، لذلك تميل إلى اختزال المواقف والتجارب وتحتفظ بمغزاها العام لأنها شديدة التلاحم بما تحمله الذاكرة (تجارب الماضي)، وبما يحمله الخيال (تصور المستقبل) من تفاصيل في التواصل مع الذات، أما أثناء التواصل مع الآخر فهي تحتفظ أيضا بالمغزى العام لمواقف وتجارب اللحظة، لأنها شديدة التلاحم بالملابسات الخارجية فتختزل جميع التفاصيل مستندة على معطيات التجربة (قرائن الحال) ومعطيات اللغة التي يستخدمها

الطرف الآخر لملئ فراغات التراكيب والاستغناء عن التكرار أثناء العملية التواصلية، لذلك لا يأتي في النفس سوى المعاني التي تكفيها للتعبير عن إدراك ما أو غاية وجدانية أو نزوعية.

فالبنية العميقة للجملة لا تأخذ شكل وحدات معجمية يأتلف بعضها ببعض، وإنما هي كتلة دلالية تربط بين مغزى الكلمات التي تبقى ثابتة في الذهن على النحو الذي انطبعت عليه في نفس المتكلم الواحد، أما البنية الفيزيائية للجملة فتأتي طوعا لهذا المغزى العام الذي تشكل في الذهن وقد تخالفه تبعا لقصد المتكلم فتفلت بذلك البنية التركيبية من الشكل الحقيقي الذي تأخذه المعاني في النفس ليتم تأليفها بما يتناسب مع القصد أو ما أراد المتكلم إيصاله عن طريق "الاختيار".

ولذلك فإن البنية الداخلية للجملة لا تأخذ شكلا واحدا عند جميع المتكلمين كما ذهب إلى ذلك التوليديون والوظيفيون، لأن المعاني كما تختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لغوي لآخر تختلف أيضا البنية الشكلية الصورية الذي تأخذها هذه المعاني في النفس من حيث الترتيب وعدد العناصر ومن حيث البناء للمعلوم أو المجهول، وهكذا دواليك...

أما البنية اللفظية للجملة فهي تعكس ما يأتي في النفس من معاني وتأتي على منوالها، فتظهر الجملة في أقل ما تتكون منه من لفظة واحدة أثناء التواصل الوطيد مع الآخر، أو في حالة التعبير عن تجربة حاضرة يعيشها طرفا الخطاب، ولهذا يختزل المتكلمون الخطاب ويكتفون باستخدام ما اصطلح عليه عبد الرحمن الحاج صالح "بالألفاظ المفردة" وهو العنصر الذي يمكن أن ينفرد في الكلام ويحقق فائدة تامة بالرغم من حذف المتكلمين لأحد طرفي الإسناد كما رأينا من الأمثلة السابقة. وهو ما سيأتي توضيحه أكثر.

4. البنية العميقة والبنية الأصلية بين الوضع والاستعمال:

نبه عبد الرحمن الحاج صالح إلى دور الاستعمال الذي بنا على أساسه علماء اللغة الأوائل تحليلهم للتراكيب العربية، حينما استحضروا دور المتكلم في التركيب، ونبهوا إلى أقل ما ينطق به مما يمثل وحدة إفادية يحسن السكوت عندها، لما تتميز به من صفة "الانفصال والابتداء" ولما وجدوا أن أقل ما ينطق به مما ينفصل ويبتدأ في الكلام هو "الاسم المفرد" أو "اللفظ المفرد" كما أطلق عليه الرضي[28]، انطلق الباحثون العرب من اللفظة المفردة في التحليل.

فالاسم المفرد الذي ينفصل ويبتدئ في الكلام هو أفضل ما ينطلق منه في التحليل لأنه يمثل أقل ما يتكلم به مما يحقق معنى وفائدة تامة، فاللفظة المفردة كما يقول عبد الرحمن الحاج صالح: "تحتل مكانا يتقاطع فيه اللفظ مع المعنى أو البنية بالإفادة"[29].

اختزال المعاني والاحتفاظ بمغزاها العام هو من خصائص اللفظ المفرد دون غيره من مستويات اللغة، فالكلام مستوى لا يمكن أن يستغني عن علاقة الإسناد، ومع ذلك فإن أقل مستوى يمكن أن يصل إليه الاختزال مع تحقق الفائدة هو "كلمة مفردة"، يقول الرضي: "الكلمة لفظ مفرد موضوع"[30]، ولا شك أن ذلك يعود إلى ما تتميز به اللفظة المفردة من قدرة على الاحتفاظ بعلاقة الإسناد دون غيرها من المركبات، فالكلمة المفردة لا يمكن أن تُعتمد وحدة تحليل إلا عندما تنتقل إلى مستوى اللفظة وهي الوحدة التي تقبل دخول الزوائد عليها يمينا ويسارا.

ولعل ما تحققه اللفظة المفردة من فائدة بالرغم من استقلالها بنفسها في الكلام، يعود إلى ما تحتفظ به من علاقات إسنادية ودلالية وتداولية تخصص اللفظة المفردة وتجعلها مستقلة بنفسها ومحققة للفائدة بالرغم من

عدم تحقق الوحدات التي ترتبط بها في البنية التركيبية على المستوى اللفظي، لأن اللفظة وإن استقلت بنفسها وخرجت عن التركيب لفظا فإنها تبقى متصلة تركيبيا ودلاليا وتداوليا بالمسند أو المسند إليه أو بالعلاقة الإسنادية لأنها مازالت في الحقيقة محتفظة بالإسناد في نفسها وإن غاب طرفا الإسناد، وهو ما يحقق لها الفائدة التي يحسن السكوت عندها.

فلفظة (عبد الله) توحي بمفردها على معنى مفرد لكنها لا تحقق فائدة تامة للمتلقي، لأنها تحمل معنى جزئيا لا يكتمل إلا بوضعها في سياقها الكلي، الذي يتكفل بملأ المواضع الفارغة على يمين أو يسار اللفظة.

حيث لا تحقق لفظة (عبد الله) فائدة تامة إلا بربطها بالسياق الذي استعملت فيه، ففي سياق تكريم المتفوقين في كلية الطب، يقال: عبدُ الله. لمن سأل: من تفوق؟

بحيث لا تستقل لفظة (عبد الله) بنفسها في الكلام على هذا الشكل: [عبد الله]، وإنما تبقى محتفظة بالمواضع الأصلية للعناصر التركيبية التي ترتبط بها، وذلك على النحو الآتي:

Ø عبد الله.

حيث تحتفظ اللفظة بإمكانية توسعها يمينا؛ فتكون الجملة: فعلية، وذلك على النحو الآتي:

Ø عبد الله.

تفوق عبد الله.

فلفظة (عبد الله) وإن جاءت في الكلام مستقلة، إلا أن فهم المتلقي لها، واكتفاء المتكلم بها في الكلام لما حققته من فائدة يرجع لما احتفظت به هذه اللفظة من علاقة إسنادية وعلاقة دلالية، وذلك باعتبارها (مسندا إليه) لمسند محذوف دل عليه السياق، وباعتبارها (فاعلا) لفعل محذوف.

فاللفظة المفردة إذن هي أقل ما يتحدث به في الكلام مما يحقق فائدة، وهي أقل ما تتكون منه البنية العميقة "المقصودة" في النفس والتي تظهر أيضا على مستوى البنية السطحية كأقل وحدة تواصل تحقق فائدة يحسن السكوت عندها.

إذا علمنا- مما سبق- أن التراكيب اللغوية على مستوى الذهن تأخذ شكل معاني تختزل في النفس إلى معنى واحد، أو معنى كلي يعبر بشكل مباشر عن مغزى الفكرة التي يريد المتكلم التعبير عنها، فلا شك أن المغزى الدلالي للتركيب في النفس لا يمكن أن يحمل تكرارا للمعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب، وهي المعلومات التي تدل عليها عناصر التجربة الموجودة في الخارج والتي يعيشها المتكلم والمخاطب معا، أو الخبرات المشتركة التي يختزنها كل منهما في الذاكرة أو الإدراك والتي تغني المتكلم عن تكرار أو إعادة ورود هذه العناصر في النفس، وهذه المعلومات المشتركة ليس شرطا أن تكون عنصرا اسميا باعتباره محورا للحديث، فقد تكون المعلومة المشتركة تركيبا اسميا، كما يمكن أن تكون تركيبا فعليا.

ولذلك فإن ما يأتي في النفس من عناصر التركيب هو العناصر الحاملة للمعلومات الجديدة، وذلك لأن المعلومات المشتركة حاضرة في التجربة، أو مختزنة في الذاكرة أو الإدراك سواء في حديث النفس مع الذات أو في حديثها مع الآخر لأن معطيات التجربة والذاكرة والإدراك التي ترتبط بالنفس الواحدة كثيرا ما يشارك فيها الطرف الآخر أثناء التواصل، مما يجعل توارد الكلام في الخطاب مع الآخر يأتي على نفس وروده في النفس، ففي سياق

السؤال عن هوية القادم، مع العلم بخبر المجيء، يقال: سمراءُ. في جواب من سأل: من جاء؟ فحُذف الفعل (المسند) في النفس لدلالة السياق عليه، واختزلت الجملة إلى لفظة واحدة وهي (المسند إليه)، وذلك على الشكل الآتي:

– Ø سمراءُ.   بدل   جاءت سمراء

م   م إليه   م   م إليه

ذكرت المعلومة الجديدة وحذفت المشتركة لأنها موجودة في السياق، وكما ظهر معنى واحد على مستوى البنية الداخلية للجملة، ظهرت كذلك لفظة واحدة على مستوى السطح وحققت مع ذلك فائدة تامة لحصول المخاطب على المعلومة التي يريدها.

ولهذا فإذا أردنا الحديث عن أقل ما تتألف منه الجملة مما يحقق فائدة تامة فإنه من الضروري تسليط الضوء على طبيعة المعلومات التي تحملها الألفاظ في التركيب، حيث تستقل الألفاظ التي تحمل معلومة جديدة-فقط- بنفسها في التركيب، سواء كانت لفظة مفردة أو أكثر من لفظة واحدة، أما أقل ما تتألف به المعلومة الجديدة فهو لفظة واحدة، لما تحتفظ به من علاقات تسمح لها بأن تستقل بمفردها في التركيب.

فتأخذ بذلك الصياغة التداولية محل الصياغة الصرفية في التمثيل لأقل مستوى في التحليل، بحيث تحل المعلومة الجديدة محل اللفظة المفردة / التركيب في تحديد منطلق التحليل، على النحو الآتي:

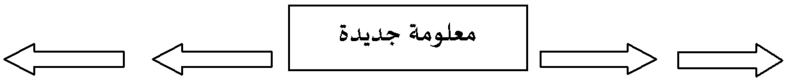

شكل (01): طريقة توسع المعلومة الجديدة في الجملة العربية

تبين لنا أن بنية التأليف في الاستعمال، قد تأخذ شكل لفظة واحدة أو أكثر بحسب حجم المعلومة الجديدة، إلا أن أقل ما يتألف منه الكلام في الاستعمال هو لفظة مفردة.

وهناك مستوى آخر من الكلام يعلو مستوى اللفظة المفردة، وهو (مستوى التركيب)، وهو كما وصفه الحاج صالح يمثل أقل ما يمكن أن يتكلم به لكن فيما هو فوق الاسم، وهو ما يبنى عليه أقل الكلام المركب[31]، وهو بنية عاملية أقل ما تتألف منه: اسمين يشكلان جملة اسمية يكون موضع العامل فيها فارغا، مثل جملة (زيد منطلق)، التي يمثل لها على النحو الآتي: (Ø زيد منطلق)، وقد تتألف الجملة أيضا من فعل يأخذ موضع العامل واسم، مثل جملة (قام زيد).

فيستخلص من ذلك وجود بنيتين للكلام إحداهما تخضع للاستعمال، لذلك فإن أقل ما تتألف منه هو لفظة مفردة تحقق فائدة تامة، وتخضع الأخرى لقوانين الوضع لذلك تتألف من كلمتين فأكثر تربط بينهما إحدى العلاقات التركيبية والدلالية.

فالتسليم بوجود مستويين للغة؛ إحداهما لغة تحرير، وهي لغة رسمية تخضع لقوانين الوضع، والأخرى لغة مشافهة تخضع لقوانين الاستعمال، مطلب أساسي تفرضه الضرورة المنهجية، في التعامل مع التراكيب.

على مستوى التواصل العفوي؛ وهو مستوى لغة المشافهة والذي يكون فيه الكلام موجها لمتلق تربطه قرابة نفسية أو اجتماعية أو فكرية أو ثقافية أو تجمعهما تجربة واحدة، لا يحتاج الطرفان إلا لأقل عدد من الألفاظ أثناء

التواصل لتحقيق الفهم والإفهام، وذلك لاتساع دائرة المعلومات المشتركة بين الطرفين، وضيق دائرة المعلومات الجديدة، لأن المتلقي أقرب إلى ذهن المتكلم في هذه الحالة. لذلك يكتفي المتكلم بأقل عدد ممكن من الألفاظ أثناء التواصل، كما يوضحه الشكل (02):

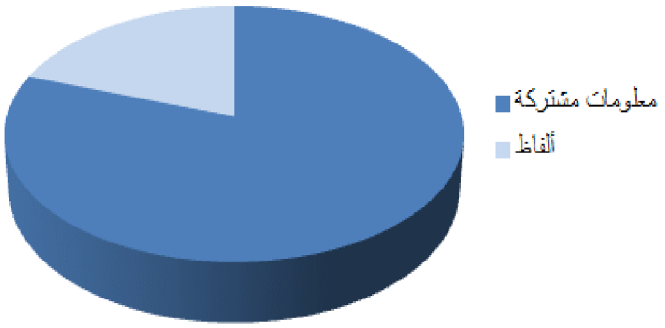

شكل (02): العلاقة بين المعلومات والألفاظ في مستوى التواصل العفوي

لذلك فإن أقل ما يتألف منه الكلام في هذا المستوى التواصلي هو لفظة واحدة، تحمل معلومة جديدة، وتحقق فائدة تامة، أما ما يتعلق بها من عناصر لم تذكر في الكلام، فهي معلومات يستدل عليها من السياق الحالي، أو الخبرات المشتركة بين المتخاطبين بالدرجة الأولى، والسياق اللغوي بالدرجة الثانية.

وعلى مستوى التواصل الانقباضي، وهو مستوى لغة التحرير؛ تقل نسبة المعلومات المشتركة بين المتخاطبين في هذا النوع من التواصل؛ لغياب الخبرات والمعارف والتجارب المشتركة، فيستعمل المتخاطبان أكبر عدد من الألفاظ، كما يوضحه الشكل (03):

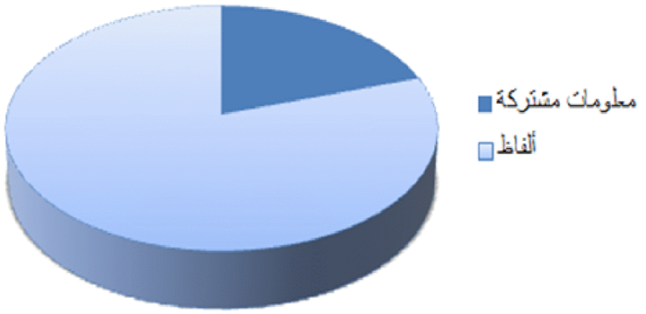

شكل (03): العلاقة بين المعلومات والألفاظ في مستوى التواصل الانقباضي

يميل المتخاطبان في هذا المستوى من التخاطب إلى تحكيم قوانين الوضع لذلك فإن أقل ما يتألف منه الكلام هو: المسند والمسند إليه، ولا يحذف أحدهما أو كلاهما إلا بدلالة السياق اللفظي عليهما.

تبيّن من مستويي التأليف ارتباط اللفظة المفردة بمستوى الاستعمال الشفوي للكلام، لأن الاستعمال يختصر الكثير من الألفاظ لحضور السياق بقوة ، بحيث يمكن أن تستقل الألفاظ بنفسها في التركيب دون حاجة لذكر ما تتعلق به في السياق اللغوي، بينما ترتبط التراكيب أكثر بالجانب الوضعي للكلام، لذلك يطّرد استعمال التراكيب في مقابل الألفاظ لتحقيق الإفهام.

ومن هذا المنطلق يختلف مستوى الاستعمال عن مستوى الوضع من حيث وحدات التحليل، فأقل وحدة قابلة للتحليل على مستوى الوضع هي اللفظة المفردة، بينما تشكل التراكيب الإسنادية التي تحتوي على أكثر من

لفظة واحدة أقل وحدة قابلة للتحليل وذلك لعدم إمكانية الاستغناء عن دور القرائن اللغوية في ملأ المواضع الفارغة من التركيب، ويمكن اختصار ذلك من خلال الجدول الآتي:

مستوى الكلام	وحدة التحليل
مستوى الاستعمال	اللفظة المفردة
مستوى الوضع	مسند ومسند إليه

جدول (01): الفرق بين وحدة التحليل في الاستعمال ووحدة التحليل الوضع

فيستخلص من ذلك وجود بنيتين للكلام؛ إحداهما تخضع للاستعمال، لذلك فإن أقل ما تتألف منه هو لفظة مفردة تحقق فائدة تامة، وهي ما يمثل البنية العميقة والتي تأتي على منوالها البنية السطحية، بحسب ما يتطلبه الوضع التخابري بين المتخاطبين، بينما تخضع الأخرى لقوانين الوضع لذلك تتألف من كلمتين فأكثر تربط بينهما إحدى العلاقات التركيبية والدلالية، وهي ما يمثل البنية الأصلية للجملة والتي تقابل عند تشومسكي (البنية العميقة).

لذلك فإنه بدل التمييز بين بنية عميقة داخلية وبنية سطحية خارجية للجملة، واعتبار الأولى أصلا والثانية فرعا- كما فعل تشومسكي- فإنه ينبغي التمييز بين مستويين للجملة هما: مستوى الوضع؛ الذي تظهر فيه الجملة خاضعة لجميع قوانين الوضع، ومستوى الاستعمال؛ الذي قد تخضع فيه الجملة لقوانين الوضع فتكون بنية أصلية وقد تخرج عنها فتكون بنية فرعية، وهو المستوى الذي يميز فيه أيضا بين بنية عميقة نفسية داخلية وأخرى خارجية، لأنه لا يمكن الفصل بين ما يأتي في النفس من تراكيب تتألف بحسب ما تمليه التجربة التي يعيشها المتكلم وبين ما يتألف على مستوى البنية السطحية ويأتي على منوال البنية الداخلية للجملة، كما عبر عن ذلك عبد القاهر الجرجاني في دلائله، مما سبقت الإشارة إليه.

5. خاتمة:

تعد البنية العميقة إذن مستوى من التأليف لا يمكن تفسيره إلا بتوسيع مجال البحث على هندسة الذهن الواسعة، والذي أطلع البحث على بنية تصورية واضحة للبنية العميقة للجمل تسهم في إنتاجها شبكة من المعارف الفكرية والحسية، وبناء على ذلك توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- تستمد اللغة بنيتها من المجتمع الذي يعطيها قيمة ما تنطبع في النفس بالكيفية نفسها عند جميع أفراد اللغة الواحدة، قبل أن تنتقل إلى مرحلة الكلام الخارجي الذي يستمد بنيته من المعنى الذي ينشأ في الذهن.

- أقل ما تتكون منه الجملة في الاتصال الوثيق هو (م أو م إ)؛ لأن النفس تميل إلى اختزال المواقف والتجارب وتحتفظ بمغزاها العام لأنها شديدة التلاحم بملابسات التجربة.

- لا تأخذ البنية العميقة للجملة شكل وحدات معجمية يأتلف بعضها مع بعض، وإنما هي كتلة دلالية تربط بين مغزى الكلمات التي تبقى ثابتة في الذهن على النحو الذي انطبعت عليه في نفس المتكلم الواحد.

- لا تأخذ البنية الداخلية للجملة شكلا واحدا عند جميع المتكلمين كما ذهب إلى ذلك التوليديون، بل تختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لغوي من عدة جوانب.

- تأتي البنية السطحية للجملة على منوال البنية العميقة في النفس، فتظهر الجملة في أقل ما تتكون منه من لفظة واحدة أثناء التواصل الوطيد مع الآخر.

- توجود بنيتان للكلام إحداهما تخضع للاستعمال، لذلك فإن أقل ما تتألف منه هو لفظة مفردة تحقق فائدة تامة، وهي ما يمثل البنية العميقة والتي تأتي البنية السطحية على منوالها، بينما تخضع الأخرى لقوانين الوضع لذلك تتألف من كلمتين فأكثر تربط بينهما إحدى العلاقات التركيبية والدلالية، وهي ما يمثل البنية الأصلية للجملة والتي تقابل عند تشومسكي (البنية العميقة).

6.توصيات البحث:

مما سبق توصل البحث إلى مجموعة من المقترحات أهمها:

- ضرورة تشجيع الدارسين على مواصلة البحث في بقية مستويات اللغة وفق هذا المنهج في الدراسة.

- ضرورة مراعاة مستويي اللغة: الوضع والاستعمال للفصل في كثير من قضايا الجملة التي لم تزل محل جدل واختلاف إلى يومنا هذا، كقضية الرتبة والدلالة وغيرهما..

- ضرورة توسيع اللسانيات على غيرها من المجالات غير اللغوية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأعصاب من أجل تحصيل نتائج قريبة من الواقع اللغوي.

الهوامش:

[1] مجموعة مؤلفين، آفاق اللسانيات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2011م، ص75- 85.

[2] ينظر، عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النحو العرفاني، تونس، مسكيلياني للنشر والتوزيع، 2010م، ص39.

[3] مجموعة مؤلفين، آفاق اللسانيات، 57، 58.

[4]رايص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، فاس، سايس، 2007م، ص184.

[5]لساني مغربي معاصر أسس لنظرية اللسانيات النسبية في الوطن العربي، له عدة مؤلفات، أشهرها: الوسائط اللغوية، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية، نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة، الوسائط اللغوية أفول اللسانيات الكلية.

[6] ابن سيناء، علم النفس من كتاب الشفاء، دراسة وتقديم المستشرق البارون كارّا دوغو، باريس، دار بيبليون، دط، 2009م، ص ص229، 230.

[7] فيجوتسكي، التفكير واللغة، تر: طلعت منصور، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1976، ص148.

[8] المرجع نفسه، ص143.

[9] علاقة اللغة بالفكر عند الإنسان في هذه المرحلة من حياته والتي تقابلها مرحلة الطفولة لا تختلف كثيرا عما هي عليه بالنسبة للحيونات، فالطفل « قبل هذه الفترة التحويليّة، يستوعب (مثل بعض الحيونات)عددا صغيرا من الكلمات التي تمثل بالنسبة له مثيرات شرطية أو بدائل للموضوعات أو أشخاص أو أداءات أو حالات او رغبات... » (المرجع السابق، 143)، فالكلام في هذا المرحلة نتيجة لرغبات بيولوجية أو وجدانية بالدرجة الأولى.

[10] لهذا وصف ابن خلدون اللغات بأنها ملكات شبيهة بالصناعة، تحصل هذه الملكة بالمحاكاة والتكرار، يقول: «اعلم أن اللغات ملكات كلها شبيهة بالصناعة... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرّر فتكون حالا» (ابن

خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر(مقدمة ابن خلدون)، ضبط : خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، دط، 2001م، الفصل 46 في أن اللغة ملكة صناعية)

[11] فيجوتسكي، التفكير واللغة، 147.

[12] أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، القاهرة، بولاق، 1322هـ، ص ص 65، 66.

[13] آن إينو، مراهنات دراسة الدلالات اللغوية، تر: أوديت بتيت، دمشق، وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، 1980م.ص ص51، 52 .

[14] سورة البقرة، آية: 84.

[15] أبو حيان التوحيدي، البحر المحيط، ص 457.

[16] سورة البقرة الآية: 85.

[17] مونان، جورج، مفاتيح الألسنية، تر: الطيب بكوش، منشورات الجديد، تونس، 1981م، ص ص124، 125.

[18] فيجوتسكي، التفكير واللغة، ص145.

[19] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تعليق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2004م، ص455.

[20] فيجوتسكي، التفكير واللغة، ص 267.

[21] المرجع السابق، ص.268.

[22] المرجع نفسه، ص282.

[23] المرجع نفسه، ص288.

[24] المرجع نفسه، ص284.

[25] المرجع نفسه، ص 288.

[26] المرجع نفسه، ص 289

[27] المرجع نفسه، ص287.

[28] الإستراباذي، رضي الدين محمد بن حسن، شرح كافية ابن حاجب، تح : يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، ليبيا، 1996م، ص5.

[29] عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، الجزائر، دط، 2012م، ج1، ص219.

[30] محمد بن حسن الإستراباذي الرضي، شرح الرضي لكافية ابن حاجب، ص7.

[31] عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج2، ص40.